

## جسر من أجل الصغار

د. محمد أجمل \*

في أحد الأحياء الهادئة بمدينة صغيرة في شمال الهند، حيث تتجاور البيوت الطينية القديمة مع البنايات الحديثة، كان هناك بيتان يفصل بينهما سورٌ قصيرٌ وحديقة ضيقة تتوسطها شجرة نيم عتيقة. كانت تلك الشجرة شاهدةً على أجيالٍ تعاقبت، وعلى قصصٍ صغيرةٍ كبرت تحت ظلها، ومن بينها قصة ليلي وسارة.

ليلى وسارة ابنتا خالتي، لكن علاقتهما كانت أقرب إلى الأختين. وُلدتا في العام نفسه تقريبًا، ودرستا في المدرسة ذاتها، وتشاركتا المقعد نفسه لسنوات طويلة. كانتا تتبادلان الكتب، وتكتبان أحلامهما في دفترٍ واحد، وتحلمان أن تسكنا يومًا في بيتين متجاورين، لتستمر صداقتهما إلى الأبد.

\* أستاذ مساعد بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو - نيودلهي

لكن الحياة تأخذ الناس في مساراتٍ مختلفة. تزوجت ليلي أولاً، وانتقلت إلى مدينة أخرى مع زوجها. وبعد عامٍ تزوجت سارة، وسكنت في ولايةٍ بعيدة. مرّت السنوات، وأنجبت كلٌّ منهما طفلين، وظننا أن المسافات قد تفصل بينهما طويلاً، حتى شاء القدر أن يعود زوجا كليهما إلى العمل في المدينة نفسها التي نشأتا فيها. كان اللقاء بعد غيابٍ طويلٍ مليئاً بالدموع والضحكات والذكريات.

سكنت ليلي في بيتٍ اشترته عائلة زوجها منذ زمن، ولم تمضِ أشهر حتى انتقلت سارة إلى البيت المجاور. يومها وقفنا في الحديقة، تضحكان كما لو أنهما ما زالتا طالبتين في المرحلة الثانوية. قالت سارة وهي تشير إلى شجرة النيم:

"أتذكرين كيف كنا نحلم أن تكون بيوتنا متجاورة؟"

أجابت ليلي مبتسمة:

"وكأن الله استجاب دعاء الطفولتين معاً".

كان لكلٍّ منهما طفلان.

ليلى أمّ لمريم ذات ثماني سنوات، فتاة هادئة تحب القراءة والرسم، وأحمد ذو خمس سنوات، صبيّ مرح لا يتوقف عن طرح الأسئلة.

أما سارة فكانت أمًا لسلمى ذات سبع سنوات، فتاة اجتماعية تحب الغناء، وعمر ذو ست سنوات، صبيّ ذكيّ يحب التفكير والتركيب.

منذ الأيام الأولى، أصبح الأطفال الأربعة إخوة. يستيقظون صباحًا فيتبادلون النداءات من فوق السور القصير، ويتقاسمون اللعب في الحديقة بعد المدرسة. كانت الأمتان تجلسان على مقعدين خشبيين قرب الشجرة، تراقبان الأولاد وتستعيدان ذكرياتهما.

كانت الحياة تسير هادئةً حتى جاء وقت تسجيل الأطفال في المدارس. اقترحت سارة مدرسةً خاصة تقع على مسافة عشرين دقيقة عن الحي، لكنها مشهورة بتفوق طلابها، وبأنشطتها المتنوعة. رأت فيها فرصةً لا تُعوّض لأبنائها.

قالت سارة بحماس:

"هذه المدرسة تفتح لهم أبواب المستقبل. لديهم مختبرات حديثة وأنشطة لغوية ممتازة".

ردت ليلي بهدوءٍ مبدئي:

"لكنها بعيدة، والأطفال صغار. المدرسة القريبة جيدة، وأقرب إلى البيت. لن يرهقهم الطريق كل يوم".

في البداية كان الحوار هادئًا، بل وديًا. لكن مع الأيام، تحوّل النقاش إلى جدالٍ خفي. شعرت سارة أن ليلي تستخفّ بطموحها، وشعرت ليلي أن سارة تلمح إلى تقصيرها. لم يكن الخلاف حول المدرسة فقط، بل حول فلسفة التربية: بين من يرى الراحة أولوية، ومن يرى التحدي ضرورة.

وفي إحدى الأمسيات، احتدّ النقاش أكثر من اللازم. قالت سارة بنبرة حادة:

"أحيانًا الخوف الزائد يمنع الأطفال من التقدّم".

تجمّد وجه ليلي، وقالت:

"وأحيانًا الطموح المبالغ فيه يسرق طفولتهم".  
ساد الصمت، ثم افترقتا دون أن تنهي إحداهما الحديث باعتذارٍ  
أو ابتسامة.

منذ ذلك اليوم تغير كل شيء.  
لم تعد الأبواب مفتوحة كما كانت.  
لم تعد الأطباق تُرسل عبر السور.  
وتحوّلت الحديقة إلى مساحةٍ صامتة.  
لاحظ الأطفال التغير قبل أن يفهموه.  
في صباح أحد الأيام، سألت سلمى أمها:  
"لماذا لم تأتي مريم أمس؟"

قالت سارة بإيجاز:

"كلُّ مشغول بدراسته".

لكن الأطفال لم يقتنعوا. كانوا يلتقون خلسةً عند السور،  
يتبادلون الكلمات السريعة والابتسامات الحزينة. ذات مساء،

وقفت مريم عند النافذة، تراقب عمر وهو يلعب وحده بكرة صغيرة. رفعت يدها ولوّحت له، فردّ بابتسامةٍ خجولة.

ذهبت مريم إلى أمها وقالت:

"أمي، إذا وقع بينكما شيء، فهل هذا يعني أننا يجب أن نبتعد؟"

لم تجد ليلي جوابًا مقنعًا. اكتفت بقول:

"الكبار أحيانًا يحتاجون وقتًا".

لكن الوقت طال، وأثر البعد بدأ يظهر على الأطفال. أصبح

أحمد أكثر عصبية، وصارت سلمى أقل حماسًا للعب. حتى شجرة النيم بدت وكأن ظلها صار أثقل.

وفي يومٍ قانظ من أيام الصيف، سقط عمر أثناء لعبه

وحده في الحديقة، وجرح ركبته جرحًا عميقًا. سمع أحمد صوته

من النافذة، فركض نحو أمه مذعورًا. ترددت ليلي لحظةً، ثم

خرجت مسرعة نحو البيت المجاور دون أن تفكر في الخلاف.

وجدت سارة تحاول إيقاف النزيف بيدين مرتجفتين. ما إن رأت

ليلى حتى قالت بقلق:

"لا أعرف ماذا أفعل!"

تولت ليلى الأمر بهدوء، أحضرت حقيبة الإسعافات، وضمت الجرح، ثم عرضت أن توصلهم إلى الطبيب. طوال الطريق، لم تتحدثا كثيرًا، لكن الصمت هذه المرة لم يكن باردًا، بل مليئًا باعترافٍ غير منطوق.

بعد عودتهما، جلس الأطفال الأربعة في غرفةٍ واحدة، يطمئنون على عمر. كانت تلك اللحظة كافية لتذكّر الأمهات بما هو أهم.

جلستا مساءً في الحديقة، تحت شجرة النيم التي شهدت الخصام والصلح. قالت ليلى بصوتٍ متهدج:

"كنا نظن أننا نختلف من أجل الأطفال... لكننا نسينا أنهم أول من يتأذى".

أطرقت سارة برأسها وقالت:

"ربما أردتُ الأفضل لهم، لكنني نسيت أن الأفضل لا يعني أن نخسر أهلنا".

سكتنا قليلاً، ثم قالت سارة:

"أنا آسفة إن جرحتك".

ابتسمت ليلى وقالت:

"وأنا آسفة إن فهمتك خطأ".

لم تكن الكلمات كثيرة، لكنها كانت صادقة.

في الأيام التالية، عاد الأطفال يلعبون كما كانوا، وكأن شيئاً

لم يكن. تعالت الضحكات مجدداً، وعادت الأمهات يتبادلن

الأطباق والكلمات. لم تتفقا على كل شيء، لكنهما اتفقتا على

أمرٍ واحد: أن يبقى الحوار مفتوحاً، وأن لا يُغلق بابٌ بينهما

بسبب اختلاف رأي.

اختارت سارة المدرسة البعيدة لأبنائها، واختارت ليلى

المدرسة القريبة. ومع ذلك، كان الأطفال يلتقون كل مساء،

يتبادلون ما تعلموه، ويساعد بعضهم بعضاً في الواجبات. صار

الاختلاف مصدر تنوع لا خصام.

وفي إحدى الأمسيات، جلستا تراقبان الأطفال وهم  
يعلقون أرجوحة جديدة على شجرة النيم. قالت سارة:  
"تعلمين؟ ربما لا يوجد طريق واحد للصواب".

أجابت ليلي:

"المهم أن نسير فيه معًا".

كانت الشمس تميل إلى الغروب وأشعتها تتسلل بين  
أوراق الشجرة، فتغمر الوجوه الصغيرة بنورٍ ذهبي. شعرت  
الأمهات بسكينة عميقة؛ سكينة من فهمتا أخيرًا أن الأمومة  
ليست منافسة، بل مشاركة، وأن العائلة ليست رأيًا واحدًا، بل  
قلب واحد يتسع لاختلاف الآراء.

ومنذ ذلك اليوم، كلما لاح في الأفق خلأٌ جديد، تذكرتا  
تلك العبارة التي قالتها مريم ذات يوم ببراءتها الصادقة:  
"نحن لم نختلف... نحن نحب بعضنا".

فكانتا تبتسمان، وتختاران دائمًا أن تخطوا خطوةً نحو بعضهما،  
لأن الأمر لم يعد مجرد رأيٍ أو قرار،

بل كان دائماً وأبداً...من أجل الصغار.

